لولا الإسلام ما استطاعت اللغة العربية أن تكون لغة الحضارة الإنسانية . ولكن عدم انتشارها ليس عائقا لترسيخ الروح الإسلامي

بقلم الأستاذ محمود الجومرد

مفتش التربية العام (بغداد)

ظهر الاسلام في جزيرة العرب ، فنزل الكتاب المقدس قرآنا عربيا مبينا . وشاءت حكمة الله ان يرسل كل رسول بلسان قومه ليفهموا رسالته وليهتدوا الى الصراط المستقيم ؛ صراط الذين انعم الله عليهم . ودليل ذلك ما جاء في القرءان الكريم (1) « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ؛ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) . والدعوة السماوية لا تفرق بين لغة ولغة ، وفرد وفرد ؛ ولون ولون ؛ وجنس وجنس ، ولكنها عامة شاملة ؛ تبدأ بذرة صغيرة في بيئة تساعدها على النمو والحياة ، ثم تكبر وتزهر فتثمر ، وعندئذ لا يقف عندها حد ؛ ولا تعيقها السدود والقيود .

وهكذا نشأت دعوة الاسلام في بيئة عربية ، حتى اذا ما ترعرعت بدأت تنتشر ، وللعرب فضل نشرها . والاسلام في جوهره قوة واندفاع وقابلية للتغلغل في أعماق الارواح الطيبة والنفوس المطمئنة والعقول الواعية ؛ لذلك كانت عوامل انتشاره كامنة في جوهره مناسبة للظروف التي نشأ فيها ؛ وقد كان العالم يومئذ بين وثنية ومجوسية وطبقية ورق وعبودية واستغلال القوي للضعيف وحرمان المرأة من حقوقها وفوضى في الحياة الاقتصادية ؛ الى آخر الاوضاع التي سادت الشعوب البدائية والحضرية . فلما جاء الاسلام نظم الحياة وشرع لها القوانين وحفظ حقوق الضعفاء وساوى بين الناس ؛ وأكرم الناس عند الله اتقاهم . كل هذه المثل العليا كانت تستهوي أرباب العقول والقلوب للدخول فيه واعتناق مبادئه .

وبفضل الاسلام ساد العرب وسادت اللغة العربية . وانتشار اللغة العربية كان لسببين : اولهما ان العرب كانوا هم الحكام الغالبين ، ولغة الحاكم دائما وابدا تسود وتطغى على لغة البلاد المحكومة لعوامل كثيرة — لسنا بصددها الآن — فتعلمها المسلمون وغير المسلمين ؛ وتحدثوا وكتبوا بها ؛ ولغة الحاكم تضعف كذلك بضعفه وتنقرض بانقراضه ، وهذا ما حدث للعرب ولغير العرب ، وتلك سنة الله في خلقه ؛ ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والسبب الثاني هو ان القرءان وما فيه من اعجاز ، والشريعة الاسلامية وما فيها من أحكام ، كل هذا جعل المفكرين من المسلمين غير العرب يسعون الى تعلمها ودراستها ، فنبغ منهم خلق كثير في الفقه وقراءات القرءان والنحو والصرف وفقه اللغة والادب ولو عددناهم لوجدناهم أكثر عددا وتأليفا وانتاجا من العلماء العرب في كل ناحية من النواحي الدينية واللغوية والادبية .

---

1) سورة ابراهيم الاية (4) .

لذلك فلولا الاسلام **ما استطاع العرب ان يجتمعوا ويتوحدوا وينتشروا في بقاع الارض** ويقضوا على اكبر دولتين في ذلك العهد : دولة الفرس ودولة الروم . **ولولا الاسلام ما استطاعت اللغة العربية ان تنتشر وان تكون لغة الحضارة الانسانية** قرونا عديدة .

ولكل دعوة انسانية ـ مهما كانت ـ اعداء واضداد ، وقد ظهرت جماعة من اليهود وهم (العيسويون) (2) اتباع ابي عيسى الاصبهاني اليهودي، وهؤلاء لا ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم يقولون : انه كان مبعوثا الى العرب خاصة دون العجم ، مستندين الى ان القرءان عربي ، والدعاة هم من العرب ، موهمين العامة بأن بعض الآيات التي وردت في القرءان تشير الى انه عربي وهو للعرب فحسب .

وفي القرءان الكريم تسع عشرة سورة تبدأ بذكر كلمة (الكتاب) واربع سور تبدأ بذكر كلمة (القرءان) وسورة واحدة تبدأ بذكر كلمة (الفرقان) ، وبين هذه السور ثلاث سور (مكية) وهي : 1) سورة (يوسف) وفيها الآية الثانية (انا انزلناه قرءانا عربيا لقوم يعقلون) ، و 2) سورة (فصلت) وفيها الآية الثانية ، كتاب فصلت آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون) و 3) سورة (الزخرف) وفيها الآية الثانية (انا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون) . والآيات المكية نزلت قبل الهجرة والدعوة في بدئها ، وهي تنصب ـ كما يعلم دارسو التفاسير ـ على الاقناع والتوجيه والعبرة والموعظة ومناقشة المعاندين المكابرين ومخاطبة ذوي العقول من اهل مكة ، ومنها هذه الآيات الثلاث التي تخاطبهم وتقول لهم : ان هذا القرءان واضح وصريح وهو بشير ونذير بلغتكم الواضحة المفهومة وهي العربية .

وقد وردت الآية (42) في سورة (فصلت) قوله تعالى : (ولو جعلناه قرءانا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته اأعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهم عليهم عمى ، اولئك ينادون من مكان بعيد) .

وكلمة (اعجمي) هنا تعني : الغامض غير الواضح او الساكت العاجز عن الاجابة ، وهذا ما اورده المفسرون جميعا . وكلمة (عجم) وهو فعل ثلاثي مجرد تجده في المعاجم اللغوية كلها يدل على الغموض والابهام ، ومعاني الافعال التي تحصل من زيادة (احرف الزيادة) عليه لا تخرج عن هذا المعنى .

فالدعوة الاسلامية دعوة انسانية ليست خاصة بقوم دون قوم وعنصر دون عنصر ، ولولا الاسلام ما انتشرت العربية وكانت لغة الاداب والعلوم ، **ولولا الاسلام لاصاب اللغة العربية من الضعف ما اصاب لغات الاقوام الاخرى** الذين ضعف حكمهم فانقرضوا .

ولعل كل ما ذكرناه يلخصه عبد الرحمن بن خلدون في (مقدمته) (3) فيقول : (اعلم ان لغة اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجيل الغالبين عليها او المختطين لها ، ولذلك كانت **لغة الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية** ، وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرابه . والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد لها ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الالسن في جميع ممالكها ..... فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا ، هجرت كلها في جميع ممالكها ، لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب ، وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة ، ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض احكامه وتغير اواخره وان كان بقي في الدلالة على اصله ..... ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق ، وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية ، فسد اللسان العربي لذلك ، **وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين ، وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا**

---

2) كتاب (التبصير بالدين وتمييز الفرق الناجية عن فرق الهالكين) . للامام الكبير ابي المظفر الاسفرايني) ص 122 .

3) كتاب : مقدمة ابن خلدون ص 266 . المطبعة البهية .

من الامصار ، فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجع وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ، ولم يبق لها رسم فى الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم ، وذهبت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب ، وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك ، وربما **بقيت اللغة العربية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين** طلبا لها، فانخفضت بعض الشيء ، واما فى ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين ، حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه فى المجالس ، والله اعلم بالصواب)

فابن خلدون الذي عاش بين سنتي 1332 م – 1406 م ادرك هذه الظاهرة وهي **أثر الاسلام فى الحفاظ على اللغة العربية** ولولاه لاضمحلت وتغيرت وضاع ادبها ونحوها وصرفها .

أما سؤالكم : هل ان الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف وأن العكس بالعكس ؟ ؟ . لقد تهيأت لي فرصة الذهاب الى تركيا وزرت بعض جوامع ومساجد استانبول) فوجدت الجوامع ايام الجمعة تغص بالمصلين شيبا وشبانا واستمعت الى قراءة القرءان بترتيل رائع وصوت مؤثر رخيم ، وكان خطيب الجمعة يقرأ بعض آيات من القرءان الكريم ويفسر معانيها باللغة التركية ، والحاضرون ليس بينهم من يحسن اللغة العربية .

أما الاكراد فى شمال العراق فهم مسلمون متمسكون باسلامهم كل التمسك ، حتى ان معظم النساء لا يتركن الصلاة ، وقد انتشرت بينهم بعض الطرق الصوفية ، ولهذه الطرق اوقاف وتكايا كلها للعبادة ولاقامة شعائر الدين الاسلامي .

لذا فعدم نشر اللغة العربية ليست عائقا لترسيخ الروح الاسلامي اذا ما اهتمت الدولة المسلمة بتدريس القرءان فى مدارسها واعدت معلمي التربية الدينية اعدادا صحيحا وعنيت برجال الدين .

والعرب اذا ما ارادوا خدمة الدين الاسلامي واللغة العربية فعليهم ان يأتوا بشباب المسلمين من الاقوام المختلفة ويربوهم فى المراكز الدينية الاسلامية المنتشرة فى البلاد العربية ويعدوهم اعدادا صحيحا سليما ، وبذلك نضمن تفقههم فى الدين ونشره وتثبيته فى نفوس الاقوام المختلفة ، ونضمن كذلك احترام اللغة العربية وانتشارها بينهم .

أما السؤال الآخر : وهو مدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان فى اللهجات واللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية أو لدى الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية والاسيوية ؟؟ فنحن نعتقد بأن هذا التأثير محدد وقاصر على الكلمات الواردة فى القرءان والشريعة الاسلامية وليس لها مقابل فى لغات الاقوام غير العربية ، وعدد هذه الكلمات قليل ، وليس على القليل قياس ! ! .